بسم الله الرحمن الرحيم

رواية : أراكَ حيًا

كتبتها : ملاك محمود

هذه القصة واقعية .. تحكي مأساة أسرة آل الجنيد في محافظة تعز اليمنية .. وصمود شبابها واستبسالهم في مواجهة المشروع التكفيري حتى الرَّمق الأخير ...

- هيا يا عبير ! الشـــمسُ توشـــكُ على الغروب لا وقتَ للجلوس ! إذا تأخرنا سـ يوبّخنا والدي .

- أخ قدمي . لقد تعثّرت !

بدا صوتُ عبير متهدّجًا وهي تحاولُ الصراخ ؛ كي يسمعها جوهر .

- ركض مسرعًا نحوها : ما الذي حدث ؟!

- كنـتُ أحـاولُ اللحـاق بـكَ على عجـل ، فتعثرتْ قـدمي بـالحجـارة ووقعتُ أرضًا .

- لا عليكِ ، إنها كدمة بسيطة .

- لكنهـا تؤلمني ، تؤلمني كثيرًا . مـا كـان ينبغي أن نبتعـد كـل هـذه المسافة عن المنزل . لا بأس عُد أنت وسـ أبقى هنا .

- هل جننتِ ؟! لا يمكنني تركِكِ هنا بمفردك . قريبًا سيحلّ الظلام .

توقفي عن البكاء الآن وتمسّكي بي جيدًا .

- ما الذي تفعله ؟! جوهر ! لا يمكنكَ حملي كل هذه المسافة .

- أنتِ ثقي بي فقط ، وتمسّكي جيدًا .

' لم يكُن الأمرُ يستحقّ ! كان خوفُهُ عليّ أكبرُ من حجمِ الألم . لم تكن سوى كدمةٍ بسيطة وتورُّمٍ طفيف إثر ارتطامِ قدمي بالحجر ، لكنّ طمعي في حنانه المفرط جعلني أعظّم الأمر . كان جوهر يحبّني تمامًا كـــــ حبي له . ربما لكوننا توأم كانت مشـــاعرنا واحدة ، وكنا كما يُقال : روحٌ واحدة توزّعتْ في جسدين !

نبكي سوية ، ونضحك سوية ، إن أصابَ الجرحُ أحدنا أصابتْ الآخر الحمى . لا أذكرُ أننا تشــاجرنا يومًا أو اختلفنا . جوهر لم يكن مجرد نصــفي الآخر فـ قد كنتُ أعدُّهُ الأب والأخ والسّند ومصدر القوة ' .

- هل تعبتْ ؟!

- كلا .

- أستطيع المشي الآن . لا داعي لأن تحملني على ظهرك .

- لا . أخشى أن يعاودكِ الألم .

انظري .. هل ترين البيت ؟ أوشكنا على الوصول .

- وماذا سـ نقولُ لأبي إن رآني بهذه الحال ؟

- لن يراكِ .

- كيف ؟

- سأتصرف .

' كــ العادة وثقتُ به ، ورميتُ كل ثقلي عليه . فــ طفلُ السابعة لم يكتفِ بحملي ، بل أيضًا بالتفكير في إيجاد المخرج من هذا المأزق ' .

- أوشكنا على الوصول ، أنتِ انتظري هنا ريثما أعود .

' انتظرته دقائق معدودة حتى عاد ، كان قد ذهب إلى الجيران يســألهم عن الطريقة الأسرع لعلاج الكدمات ! '

- ما هذا ؟!

- قطعة اجتزأتُها من قميصي وماءٌ !

- قال وهو يسـترق ضـحكةً شـقية : دخلتُ إلى المطبخ خِلسـة وقمتُ بتسـخين الماء ثم خلطته بـــ قليلٍ من الملح . أخبرني الجيران أنها طريقة نافعة .

هيا مدّي قدمكِ ؛ كي أضع الكمادات عليها .

' كانت تجربة ممتعة ، شعرنا حينها بالإنجازِ العظيم ، فـ قد تجاوزنا المأزق ! ' .

- حاولي أن تجعلي الأمر يبدو طبيعيًا ، فلا يتلوّه أحد لأمرِ إصابتك .

- حسنًا .

' غالبًا تعقدُ الفتياتُ صداقات مع بعضها ، أما أنا فـ قد كان جوهر لي : الأخ والصديق والرفيق ومصدر القوة والثقة والأمان .

أحيانًا كان والدي يأخذه معه إلى المدينة ، كنتُ أشـــعر بدموعي تختنقُ في حنجرتي ، والدنيا تضيقُ بي . في غيابه كانت الساعات تمشي بـ بطيء وثُقل ، كان الفقدُ يصـيّرني طائرًا مكسـور الجناح يرقبُ موعد وصـول رفاقه بقلبٍ أرجفه الاشـــتياق . وسُـــرعان ما تتفجّر الحياةُ في قلبي وتنتعشُ طفولتي البريئة عند عودته ' .

- يا إلهي ! أين دفتر الرياضيات ، إنه غير موجود في الحقيبة ؟

أخشـــى أن يســـتيقظ ويراني . ليتهم يحـذفون هـذه المـادة من قـاموس الدراسة كليًا !

' كنتُ شديدة التذمّر حين يتعلّق الأمرُ بـ كتابةِ فروض مادة الرياضيات . لم أكن أدري سرّ كراهيتي المُفرطة للمادة ، لذا كنتُ لا أُطيق أن أكلّف نفسي عناء كتابة فروضـها المدرسـيّة ، ولكوننا أنا وجوهر في شـعبةٍ واحدة كنتُ أستعينُ بـ دفتره ! فـ أقوم بأخذه من الحقيبة فجرًا وهو نائم وأنقلُ الفرض جاهزًا إلى دفتري ' .

- جوهر بـ عينين نصف مفتوحتين : ماذا تفعلين ؟!

- ها ! لا شيء ، يخيَّلُ إليّ أنّي وضعتُ دفتر اللغة العربية في حقيبتك .

آه إنه غير موجود سـ أبحثُ عنه في مكانٍ آخر .

' شعرتُ حينها بمسٍّ كهربائيٍ سرى في جسدي الصغير ، كيف سـ أفعل ؟ لا وقت لكتابةِ الواجب أو بالأحرى لا أعرف كيف سـ أحلّه . كان جوهر قد أخفى الدفترَ عني ؛ كي أعتمدَ على نفسي وأبدأ بـ الالتزام بـ كتابة فروض المادة . لم أجرؤ على طلب الدفترِ منه ، والوقتُ أصـبح ضـيقًا ولابدّ أن نذهب إلى المدرسة ' .

- دخل المعلّم إلى الصـفِّ متجهّمًا وبيده عصًـا غليظة ، نادى بصـوته الجهوريّ : افتحوا دفاتركم ؛ سـ أمرّ لرؤية الواجب .

' بدأت أصـواتُ الجلدِ على بواطن الكفوف تطرقُ سـمعي وتُثقلُ صـدري ، رَجفةٌ تسـري في جسـدي تجعلني لا أقوى حتى على الحِراك . كم كان ذاكَ الأستاذ قاسيًا وشديدًا .

يا إلهي ، ماذا أفعل ؟ شـبكتُ أصـابع كفيّ وضـللتُ أجزّ على أسـناني ، في محاولةٍ يائسـة للتماسـك . لحظات ولمحتُ جوهر يومئ لي برأسـه ؛ كي

أذهب لآخر الصف دون أن يتنبّه الأستاذُ ، مررتُ دفتري إليه خفية وتسلّلتُ بهدوءٍ إلى آخر كرسيٍّ في الصف ، وبسرعةٍ هائلة كان يحلُّ لي الواجب قبل أن يصلَ الأستاذ .

ما هي إلا دقائق قليلة حتى انتهى الأمر بـ سلام ' .

" يُقالُ بأنّ الأشياءَ تبدو من بعيد براقة وجميلة ، وعند الاقترابِ منها أكثر يبهت جمالها ويخفّ بريقها . إلاّ جوهر ، كل من اقترب منه أحبّه ورأى كم كانت روحه نقية و قلبه يفيضُ بالجمال .

ابتدأتْ قصتنا سوية ، مُذ كانت قطعةُ القماش الصغيرة تلك تلفُّنا . مذ كُنّا طفلين رضيعين لا نعرف بعدُ من الحياة شيء .

كيف مضى العمر ؟! وكيف سارت الأقدار على هذا النحو ؟! إلى أين نمضي ؟! وعند أي منعطف سنفترق ؟!

لا أدري كيف مرّت تلك الساعات ؟! ليست بالحلم ولا اليقظة ، بل نارٌ مضطرمة تحت الرَّماد .

خفيّة بلا أثر ، ما إن تضع يدك فوق الرماد حتى تدرك أن ثمة معركة تشتعل في الأسفل !

نشأت مع أخوتي ـ خمسة فتيةٍ وخمسُ فتيات ـ في بيئةٍ محافظة ، في قريةٍ جميلة تعانق السحاب في جبل صَبِرْ بمحافظة تَعِزْ ، تسمى " الصَّرَارِي " .

كان والدي يعملُ مديرًا لمدرسة الإنقاذ التي أسسها والده " جدّي " . الرجلُ الذي كان يحرصُ كثيرًا على أن يحظى أطفالُ القرية والقرى

المجاورة من فتية وفتيات بفرصــةِ اكتســابِ العلم ، لدرجةِ أنه كان يطرق باب منازلهم منزلاً منزل ليحثهم على الالتحاق بالمدرسـة . عدا حرصه على أن يتكفل بنفقات التســجيل وتوفير المســتلزمات الدراســية للطلاب المُعسرين .

كان والدي – على الدوام – يذكِّرنــا بأنّ جدي من أوائل من سعوا لمحاربة الفكر الوهابي الذي توغّل في المنطقة آنذاك .

ومما حرص عليه هو التركيز على توعية الجيل بالمفاهيـــم الجهادية والثورية المنبثقة من كتاب الله وسيرة أهل البيت عليهم السلام .

شعورٌ بالفخر والاعتزاز كان يعترينــا كلما سمعنا سيرته على لسانِ أبي أو على ألســن أبناء القرية ، ولعلّ تلك النزعة الثورية ظلت تلاحقنـــا حتى توغّلت في قلبِ شابٍ اسمه جوهر ! " .

****

- إلى أين أنت ذاهب ؟

- إلى المسجد ! هل نسيتِ أن اليوم هو الجمعة ؟

- آه صحيح .

- امممم إذًا ارتدِ هذا الثوب .

- لا . ذاك أجمل .

- بل هذا أجمل . ويبدو لائقًا عليكَ حين ترتديه .

- آآآآآه يا إلهي . أنتِ هكذا على الدوام ، الوحيدة القادرة على إقناعي بما تريد .

- انفرجت شفتا عبير عن ابتسامةٍ ودودة وهي تجيبه : ربما لأننـــا توأم . ولأني أختكَ المقربة ، وصديقتكَ ورفيقة أوقاتك ومغامراتك !

رجلٌ لا يعرفـــه جوهر يعتلي المنبـــر ، جُلُّ ما يعرفـــه أنّه ضيفٌ قَدِمَ إلى القريـة . كان الرجل يرتجز على المنبر ببراعـة شدّت انتباه جوهر وإعجابـه . بل أهل القرية أجمع .

خطبة جمعة مميزة ، كان لوقع كلماتـه أثر بالغ على النفوس . خطبة ثوريـة تُشبع الحماس المتّقد في نفوس المستمعين .

ألقى آخر كلمـاتـه . اختتم الخطبـة ، ثم ترددت في الأصـــداء دعوات رص الصـفوف لبدء صـلاة الجمعة . الفضـول لمعرفة الفارس الذي اعتلى المنبر سيطر على الشـاب ذي الأعوام السـبعة عشـر ، فـــ بادر بسـؤال أبيه عمّن

يكون ! ليأتيه الرد بأنه أحد المجاهدين الآتين من محافظة صـــعده ويدعى فتحي الجرادي .

إنه شعورُ الدهشـةِ الأولى في صدرٍ متّقد باندفاع الشباب ، صوتٌ في أعماقـه يقول : هذا ما كنتُ أبحثُ عنه !

تظل الفترة الأولى من الشباب مرحلة حرجة وحساســـة في اكتشاف الذات ومعاني الحيـاة ، إنها أشبه بعاصفة نفسية وتكوينية ، تدفع صاحبها للنجـاة أو الهـلاك !

آنذاك ، لم يترك جوهر مجلسًـــا يتواجد فيه فتحي إلا وذهب ليســتمع إلى محاضراتـــــه . كان فتحي هو مبعوث قائد الثورة السيد عبد الملك الحوثي إلى المنطقة .

لم يخفَ عن فتحي ذاك الاتقاد وتلك الحماسة التي كانت تشع من عيني جوهر ، كان يلمس فيه اندفاعًا منقطع النظير .

مرّت الأيام وسافر جوهــر إلى المدينـــــــة ، وهناك التقى جندي الله قائد معركة " تقطيع الأوصـــال " في الســـاحل الغربي ، قائد القوات الخاصـــة _ لاحقًا _ الذي أرعبَ بحنكته وشجاعته مرتزقة العدوان " أبو شهيد الجرادي " .

لم تكن الأقدارُ تســـيرُ هكذا ، بعشـــوائية . فأقدارُ المولى عز وجلّ تحملُ وراءها حكمةً عظيمة تتكشّف بمرور الأيام !

- تقدّم أبو شـــهيد نحو جوهر ، بابتســـامته المعهودة بادره بالقول : لا شك أنك جوهر .

- بدا جوهر متعجبًا وهو يتساءل في نفسه : من أين يعرفني !

- تتساءل كيف عرفتك ، أليس كذلك ؟ أخبرني عنك فتحي .

استوى حسن المكنى بأبو شهيد في جلسته ، أخبر الشباب المتواجدين برغبته في أخذ مجموعة منهم إلى محافظة صعدة للمشاركة في تشييع الشهيد القائد السيد حسين بدر الدين الحوثي ، فكان جوهر في طليعة من بادروا للذهاب .

كان التشييع أول عملٍ جهادي يشارك فيه جوهر ، غمرته سعادة دفّاقة . شيء يشبه الربيع أزهر في أعماقه .

****

كان من البديهي أن يفكّر الأستاذ عبد الحكيم والد جوهـــر بمستقبلِ ابنه ، خاصة وأنه قد أتمّ دراسته الثانويـــة وصـــار لزامًـــا أن يحدّد الكلية التي يرغب في الالتحاق بهـا .

- ألم يئن الأوان يا بنيّ لأنْ تقدِّم للالتحاق بالجامعـــة ؟

- بلى يا أبي .

- هل قررتَ في أي تخصص تنوي الدراسـة ؟

- أفكّر في الهندسـة .

- بفخرٍ صـامت كان ينظر إلى ابنه ، وفي صـدره تنبض حرارة الامتنان . قال له : أحسنت . وأين تنوي الدراسـة ؟

- أفكر بالسفر إلى صنعـاء للبحث عن جامعة ملائمة .

- جيد . التفتَ إلى عبير موجهًا لها السؤال ذاته : وأنتِ يا ابنتي ؟

- أنـاا .. امممم ، أفكر في دراسـة الرياضيات الحيويـة .

- ممتـاز . لكن على حدّ علمي أنتِ تكرهين الرياضيات !

- ابتلعت ريقها مترددة " بصراحـة لا أدري . ربما هي محاولـة لتحدّي مخاوفي

" .

- قـاطعهـا جوهر معلّقًـا بشـــيء من الســـخريـة المبطنـة : تعجبني شجاعتك !

****

لم يمضِ وقتٌ طويـل حتى قرّرَ جوهـر السفر إلى العاصمة صنعاء ، وخلال فترة مكوثه فيها بقي في منزل عمه الأسـتاذ محمود . اسـتطاع خلال تلك الفترة أن يكتسـب خبرة جديدة ، اتّسـعتْ مداركه في اسـتيعاب المشـروع القرآني أكثر مما جعله يفكّر في الذهاب إلى صـــعدة . وبالفعل تحرّك إلى هناك تاركًا حلم الدراسة والالتحاق بكلية الهندسة !

التحق جوهـــــر بالعديد من الدورات الثقافيـــة في محافظة صعدة ، التي كانت حينذاك مهوى أفئدة الشـباب المتطلّع للالتحاق بالمشـروع القرآني والتعرف عليه أكثر عن قرب .

طال غياب جوهر كثيرًا ، ما أصاب والديـه بالقلق الشديد .

لم يعلما أن ولدهما قد غادر صـــنعاء متوجهًا إلى صـــعدة . وحالما علما تحرّك مطهر الأخ الأكبر للشـــهيد للبحث عنه ، كان كمن يبحث عن إبرة في كومة قش ، رغم ذلك لم ييأس !

إلى أن أوصله السؤال عنه إلى منطقة تسمى " دار الشريف " .

حاول مطهر أن يتدارك الجيب العســـكري قبل أن يتحرك إلى وجهته في محافظة مأرب . لم يتُه عن وجه أخيه ، الشـــاب النحيل ذو الملامح البارزة والشـعر الأسـود الكثيف ! تقدم بسـرعة نحو الجيب حالما رآه جالسًـا بهدوء في الصندوق الخلفي .

سـيطرت على جوهر ملامح الدهشـة حين رأى أخاه أمامه . بينما بدا مطهر متوترًا وأعصابه مشدودة .

- أنت هنا يا أخي ونحن نبحث عنك ؟ ما الذي تفعله هنا ؟

- مطهر ؟ كيف وصلتَ إلى هنا ؟!

- لا يهم . المهم أنّي وصلت !

أراد مطهّــر أن يقنع جوهــر بالعودة معه ، لم يجد طريقة أخرى غير إغرائه بالدراسـة والزواج . كان يعرف أخاه جيدًا إذا عزم على أمرٍ فلا شـيء يثنيه ! ووالدته تكاد تُجَنُّ لغيابـــه : عُد لتلتحق بأفضل الجامعات وسيقوم والدي بتزويجك . هيا يا جوهـر .

- لم يكُن لشيء أن يؤثّر في جوهر فهو لم يصل إلى هنا بدافع الفضول أو اللهو ! بل لرغبة يقينية في الانطلاق الصـــادق دون تراجع . بدا في غاية الهدوء ونظراته الثابتة تســبق كلماته ، توحي برفض كل مغريات العودة والتراجع ، أجابه برزانــة وحزم : إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم ، وأنا يا أخي قد بِعتْ !

كان الردُّ كفيلاً بأن يعيد مطهّـر من حيث أتى .

****

فتح عينيه ببطء ، المكان من حوله يبدو ضبابيًا . مرّتْ ثوانٍ قليلة حتى بدأ يشعر بجسده ويعي ما حوله .

التفتَ يمنةً ويسرة يتفحّص المكان ، حتى أدرك أخيرًا أنه في المركز الطبي للمعسكر .

تحت حرارة الشمس الحارقـــــة في معسكر ماس للتدريب العسكري فقد جوهر وعيه . لم يسبق له أن قـام بمجهودٍ تدريبي في جوٍّ حار وخانق كهذا !

النافذة عن شماله تطلُّ على المعسكر ، أصوات المتدربين تخترق سمعه ، ورؤية حماسهم الفائق تثير فيه رغبة العودة إليهم .

شــعر بوجود أنبوب المحلول المغذي متصــلاً بيده ، لم يســتطع الانتظار حتى ينتهي ، سرعان ما سحب الأنبوب من يده وعاد للتدريب !

كانت الأشهر الثلاثة التي قضاهـــــــا جوهر في معسكر ماس في مأرب من أجمل الأيــام والتي تعرّف فيهـا على مجاهدين كانوا بمثابة الأخوة .

لم يمضِ كثير من الوقت حتى بدأت عناصر القاعدة والمجاميع التكفيريـة بالتحرك في محافظتي رداع والبيضـــاء ، كانت أولى المعارك التي يشارك فيها جوهر بحماسٍ واندفاع غير محدوديــن . لم يكن الوحيد فقد كان ومن معه يعدُّون الســاعات للوصــول إلى ســاحة المواجهة بحماسٍ يناطح السحاب !

لم يتوانَ المجاهدون لحظة عن الثبات والاســتبســال حتى كتب الله على أيديهم النصر ، وتمكنوا من تطهيـر المنطقة .

- " الحمد لله يا رجـــــال . الحمد لله أن شرّفنا الله بوسام الجهاد في سبيله وحقق على أيدينا النصر على أعدائـــه ، الله أكبر / الموت لأمريكا / الموت لإسرائيل / اللعنة على اليهـــــــود / النصر للإسلام . " صاح بهم جوهـر وقد أثلج النصر الإلهـي صدور المجاهدين .

****

كـ أيّ أم كان قلبهـا يتوقَّدُ خوفًا على ولدهـا الغائب ! كلما تذكرته تسارعت نبضات قلبهـــا وتلاطمت أمواج القلقِ في صدرهـــا . ترغبُ في سماع صوته ليسكن فؤادهـا ويطمئنّ قلبهـا !

ترى هل كُتِبَ على أمهات الأبطال أن يعِشنَ بأفئدةٍ خاويـــة وقلوبٍ معلّقة ؟!

وبين تقدير الشعور الفطري للأم وحتمية الثبات الذي تفرضه المعركـــــة تقف المشاعرُ في منطقة رماديـــة لا تدري كيف تعبِّر أو تواسي ، فأي لغةٍ تلك التي بوسعهـا أن تُنصفَ مشاعـر الأم المنهكة بلوعة الاشتياق ؟!

- عبير . اتصـــلي بأخيـكِ مطهر ؛ كي يجد طريقة للاتصـــال بجوهر والاطمئنان عليه .

- حسنًا يا أمي . لكنه لن يتمكن من الاتصال به !

- لا شـأن لي . لابد وأن يجد طريقة ما ، أشـعر بأن قلبي سـيتوقف من شدة القلق . أريد أن أسمع صوته وأطمئن عليه .

رغم إصرار والدة جوهر على الاتصال بولدها إلا أنّ كل محاولات التواصل به باءت بالفشل ليظل فؤادها فارغًا يُعييها الفقد والاشتياق !

وما الحكمة من الغياب إلا أن يظلّ قلبُ المشـــتاق معلّقًا بين الأرض والسمـــــاء ، يبحثُ عن محبوبـــــه في تسابيـــح العاشقين ، وصلواتِ الخاشعين ، وتراتيل الذاكرين .

فتبًا لمن يؤنِّبُ الأمهـــــات بدعوى الصبرِ والثبات . فهنّ سيدات العشق ذوات القلوب المنتظرة . فهل من عبادةٍ أعظم من الانتظار والصـــبر على الفراق ؟!

هنّ يعلمنَ أنّ في قانون العشقِ ليس هناك أرض ، فكلُّ العوالمِ سماء !

لذا يظل العشّاقُ هائمون في فضاءات معشوقهم الأزلي . يتنشّقون عبق الحياة من نافذة الموت !

يُدركنَ أن مستقرَّهم ليس طينة الأرضِ بل عالم الملكوت الأزلي .

لم يكن قلق عبير على أخيهـــا بأقلّ من قلق أمهـــا ، إنما كانت تصرُّ على التصبُّر ما استطاعتْ وإخفاء شجنهـــا ما أمكن . تقاسمُ توأمهـــا العزمَ والصبر كما تقاسمه النبض !

في الليالي الحالكات لا تجد غير الدعاء حبل وصلٍ يمدّها به ، فهي لم تعتد هذا الغياب ولم تألف هذا الفراق . فراقٌ يكاد ينتزع قلبهـــــــا من بين أضلاعها .

****

تفجّرت في دواخل جوهــر رغبة في الاندفاع أكثر نحو معارك أخرى . فهو لم يأتِ إلى هنا كي يكتفي بالقليل ! بل ليستزيد أكثر . فكان كلمـــــا انتهت معركة التحق بأخرى ! هكذا حتى بدأت أحداث ثورة الحادي والعشــرين من سبتمبر فكان في طليعة من شاركوا في تسطير ملحمة النصر في ذلك اليوم التاريخي باقتحام مقر الفرقة الأولى مدرّع واستعادة العاصمة صنعاء من حضن الوصاية الأمريكية إلى السيادة المطلقة .

عندهـــا كان صوت جوهر تبريكة النصر الأولى التي بلغت مسامع والديــه وإخوته .

جاء الاتصال صباح ذلك اليوم مفاجئًا وغير متوقع ، كانت مفاجئة سعيدة وليت المفاجئات تأتينا كما نحب ونرغب !

كانت عبير أول شخص تلقّى صوت جوهر ، شيء ما شدّ أوتار قلبهــا قبل أن تصلها رنة الهاتف المحمول حتى سمعت صوت جوهر . أدركت حينهـا أن ذاك الوتر الذي يربط قلبيهما لا يزال موجودًا بل ربما ازداد متانـة .

سحبت أم جوهر الهاتف من يد ابنتها ، تحادث ولدهـــا كمن أدركه المطر بعد قحطٍ طويل .

- قالت له : عُدْ يا جوهـر ، إن حدث لك شيء سأُجَنّ !

- أجابها : إن حدث شـــيء يا أمي فالله ســيربط على قلبكِ كما ربط على قلب أم موسى .

- " عُد يا بني ، ها قد انتصرتم بفضل الله ! " قال له والده .

وكالعادة كان جوهر يأبى العودة ، وكله حماسٌ لإكمال المســـير ، " لا يزال الأقصـى في انتظارنا يا أبي " . الجملة التي جعلت أباه يزدادُ فخرًا بولده رغم معانـاة الغياب ، ويدرك أنّ الطريق لا زالت طويلة والمسير لم ينته !

****

لم يمضِ الكثير حتى توجّه جوهر " أبو زناد " مع رفاقـــه إلى جبهتيّ شبوة ومأرب اللتان كانتا تشـهدان حربًا حامية الوطيس ومواجهات مسـتمرة مع مرتزقة العدو .

أصواتُ الرصاص والقذائف تهزُّ المكــان ، يتصادمُ الصوت مع الصدى بين الجبال الشـــاهقة . وألســـنة النار تكادُ تُشـــعل بركانًا لا ينطفئ . في قلب الاشـــتباك وعلى خطوط التماس كان أبو زناد كليثٍ يتقدّم دون خوفٍ أو ارتباك .

يحملُ في حقيبة ظهره مصحفًا صغيرًا كانت قد أعطته إيـــــــاه عبير قبل رحيلـــه ، وفي قلبه يحملُ عزمًا وشجاعـــة لا يعرفُ الخوفُ طريقًا إليهمـــا . فقد كان يعدُّ نفســـه في حكم ملكية المشـــتري ، وكل وجوده صـــار مرهونًا للحق عز وجل ، لا يريد من الدنيا شـــيء غير القبول الإلهي ، ولا يهتم إن وقع على الموت أم وقع الموت عليه !

وفي مساء إحدى الليالي المقمـــــرة وكعادته أخرج المصحف من حقيبته ، بدأ يتلو الآيات بخشـــوع وطمأنينة . وعند انتهائه أخذ قلمًا وبدأ يخطّ على غلافه أبياتًا شعرية للشهيد عبد المحسن النمري :

مدّ كفّك وخذ سيف الشـــرف من يديني .. واحمِل الختمة أغلى ما غلى في غلاتي

رُحْ وجاهـــــد مع ابن البـــــدر والمتقيـــنِ .. وانصر الحق وأهله واضربوا كل عـاتي

راحت وقالت : اعذرني ، فقلـــت : اعذريني .. هذه أغلى هدية شفتهـــا في حيـــاتي

ختمتي اللي تنـــوّر مسلكي كـل حيـــن .. وسيفي اللي رفعتـــه في وجوه الطغاة

- قال مخاطبًا نفســه بعد أن فرغ من الكتابة : إن كتب الله لي العودة منتصــرًا ســتكون هديتي لعبير هذا المصــحف الذي رافقني طوال هذه المدة !

وسـرعان ما بدأت الاشـتباكات قبل بزوغ الفجر . كانت المعركة تشـتدّ أكثر والمجاهدون يستبسلون مع كل تسبيحة يرددونـهـــا ، لم يكن الأمـــر بالنسبة للعدو طبيعيًا فقد كان على ثقة بأن هؤلاء لا يقاتلون بمفردهم . بل هناك قوةٌ غيبية تسندهم وتقاتلُ معهم وإلى جوارهـم .

استطاع المجاهدون حسم المعركـــة رغم صعوبتهـــا . عندها توجّه جوهر مع مجموعة من المجاهدين إلى الرَّضْمَة في محافظة إبْ لتحريرهـــــا من فلول التكفيريين .

الهاتفُ يرِنّ .. ركضـــت مســـرعة نحو الحجرة ، كان صـــوتُ رنين الهاتف المحمول بمثابـةِ البشارة الخفيّة التي تظل في انتظارهـا على الدوام !

بدا صوتُهُ خجِلاً ، يمتزجُ بنغمةٍ رجوليـــةٍ آسِرة ، اغرورقت عيناها بالدموع . اختنقت الكلماتُ في حنجرتها وتدافعت الدموع في جفنيها تثيرُ فيها رغبة جامحة في البكـاء . شعرتْ وكأنّ الحياة دبّت فيها من جديد .

لم تنبس ببنت شفه عند سماعها أحرفه الأولى . " لقد كان جوهر . نعم إنه جوهـــــر ، يااااااه مذ سافر لم أتحدث معه . أشهر مرّت لم أستطع خلالهـا اعتياد غيابـــه عني ، هل أنفجرُ في سماعة الهاتف وأعاتبـــــه على غيابـــه الطويل عنّي ؟ أعاتبُ طيفه الخفيّ الذي يتسلل إليّ في كل ليلة ! " . قالت في أعماقها .

لم يترك لها مجالاً للعتاب ، كان اشتياقه لها مبطنًا بأبياتِ شعر همس بها تلك اللحظة :

جاءت مراسيلي على الخط مجّـــان .. تحمل سلامي بعد مدة طويلة

بعد انقطاع الوصل من دون نسيان .. لا قصد متعمد ولا هي بحيلة

لكن ظروف الوقت والنذل سلمان .. اللي حرمنا وصل ناس أصيلة

تلك الكلمات أجَّجت مشاعرها أكثر ، ما أصعب أن تحاول كتمان شعورٍ ظل يتراكم شهورًا وأيام ، في حين يوشك على الانفجار دفعة واحدة !

تمنت لو استطاعت أن تقول له : عُدْ .

لم تقوَ على ذلك !

كان تجلُّدهـــا يغلبُ ضعفهـــا ، أيُعقَل أن تطلب منه العودة إليهـــا وترك شرفه وشغفه لمجرّد أنها اشتاقت إليه ؟!

محال ! فالقضيةُ تعلّمنا كيف نغالبُ شعورنـــا وإن كانت قلوبنـــا تشتعلُ جمرًا !

- منذ مدة لم أحظَ بدفء الحديث معك يا أخي ! لقد اشتقتُك .

- وأنا أيضًا . هل تعلمين أنّي ما زلتُ أحتفظُ بالمصحفِ الذي أعطيتنيه ؟

- حقـًا !

- نعم ، وقد قمتُ بخط بعض الأبيات على غلافه ، إنها تذكرني بكِ كلما قرأتها .

- أرجو من الله أن يحفظك أينما كنت وأن ينصـركم على أعدائكم ، كُن ليثًا في المعركة كما عهدتك !

- نسـأل الله الثبات والقبول ، أنا مضـطر لإنهـــــاءِ الاتصـال . أبلغي سلامي لوالديَّ وإخوتي . واعتني بنفسكِ جيدًا ، في أمان الله .

- تمنت لو تستمرّ المكالمة ساعاتٍ وساعات ، علّهـــــا تطفئ جمر الاشتياق الذي يوقد صدرها . أغلقت الخط وهي تردد ببطء : في حفظ الله .

****

لم تنتهِ المعركــة في مأرب وشبوه ، العدو بعناصره التكفيريــة ومجاميعه يستميت في سبيل السيطرة على المحافظة ما حتّم على المجاهديـــــن حشد قواتهـم ومضاعفة جهودهم للتصدي لهم .

حينهـــا عاد جوهـــر إلى ساحة المعركـــة ، يحملُ بين أضلعه قلبًا ما عاد يعرفُ للخوفِ مكانًا . تزيده المعاركُ صــلابةً وتصــقلُ الحرب تجربته في القتـال .

في حدودِ الثانية فجرًا بدأت أصواتُ الرصاصِ تتعالى حين زحف المجاهدون باتجاه إحدى مواقع العدو ، كان الطقسُ شـــديد البرودة إلا أن حرارة الحماسة المتّقدة في صدور المجاهدين أنستهم زمهرير الشتـاء وصقيعه !

كانت الأرضُ تهتزُّ تحت وقع القذائف ، وفي الأرجاء تفوحُ رائحةُ الحديد المحمّى .

تختلطُ أصواتُ الرصاص بأصواتِ المقاتلين .

يأتيهم صـــوتٌ يزمجرُ من ســـماعة اللاســـلكي : " تقدموا يا رجال الله ، قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشفِ صدور قومٍ مؤمنين " .

كانت الآية القرآنية دافعًا كافيًا لأن يتقدم المجاهدون باســتبســالٍ منقطع النظير .

لم تتوقف بندقية جوهر عن قنص جماجم جنود العدو ، يطرحهم أرضًـــا الواحد تلو الآخر .

يواجههم من خط النار ، خطّ المواجهة الأول .

لم تُخطئه يد العدو الغادرة هذه المرة ، هوى على الأرض مغمى عليه .

فتح عينيه ! بدا المكانُ هادئًا للغاية ، لم يكن يشــعرُ بشــيء ولم يرَ أمامه غير السماء باتساعها . لوهلةٍ ظن نفسه قد بلغ السماء ونال الشهادة .

- خاطب نفسه بصوتٍ مسموع : أين أنا ؟ هل استشهدت ؟

تنبّه إلى أنه ما يزال في أرض المعركة وأن شظايــا المدفعية قد أصابته في رجله وأسفل بطنه . ونزيف الدم يسيل من جراحه .

زحف ما أمكنه وحاول النزول من أعلى الجبل ، ومع حركته بدأت آلام جراحه تداهمه والشعور بثقل المشي يتمكن منه . حاول التخلص من كل ثقلٍ كان يعيقه.

نزع الجعبة من فوقه وكلما أحس بثقل المشــي أكثر تخلص من شــيء حتى همّ برمي الحقيبة التي كان يرتديها على ظهره ، تذكّر المصــحف . بالكاد اســتطاع خلع الحقيبة وفتحتها . بيدين مرتجفتين كان يبحث عن المصحف !

بدأت أصوات الرصاص تعود من جديد ! أخيرًا وجده .

دسّهُ في قميصه من الداخل خشية أن يقع منه ، رمى الحقيبة ولم يشعرْ بشيء بعدها !

****

في تلك الليلة اشتعل جسد عبير بالحمى فجـــــــأة دونما سبب ، تُلهب جسدهــا وقلبهــا في آن . شعرت أن مكروهًا أصاب أخاها ، فغالبًا ما يرسل جسدها إشارات إليها عندما يصاب جوهر بمكروهٍ ما .

توسّــلت الدعاء لتخفف من حدة القلق المســيطر عليها ، بينما كان لهيب الحمى يلتهمُ جسدها !

فـــ علاقتهما ليســت مجرد علاقة أخوة ودم فحســب ، بل تجاوب كيميائي وروحي منقطع النظير !

****

" يا رجال قوموا بتغطيتي ، أبا زنـــــــــاد جريح ! " ، أفاق على صوتِ أحد المجاهدين يصرخ .

صعد إليه مجازفًا ، والرصاص يهطل كالمطر من كل جانب ، لم يبالِ . تقدّم دونما اكتراث .

وصل إليه وحمله على ظهره ، أثناء ذلك أصيب إصابة طفيفة لكنه استمر بالنزول والمشي .

كان جوهر شبه مستيقظ . حمله رفاقه إلى سيارة الإسعاف وهناك كان اللقاء الأخير !

- قال لهم بصوتٍ منهك وهو بالكاد يستطيع لفظ حروفه من بين شفتيه : سأعود إليكم .

لم يكن رفاقه يعلمون عنه شيئًا غير أنه من محافظة تعز وأن اسمه الجهادي " أبو زناد " .

استيقظ جوهـــــر ليرى نفسه محاطًا بجدرانِ ملونة باللون الأزرق ، ورائحة المشفى تُزكم أنفه . فـ طالما كرهها !

تذكّر المصحف . تحسس صدره ، " يا إلهي أين المصحف هل يعقل أن يكون قد سقط مني أثناء نقلي إلى هنا ؟ " .

بالكاد استطاع تحريك رأسه ، التفتَ يمينًا ليرى المصحف موضوعًا إلى جواره .

لم يمر وقت طويل حتى تفاجأ جوهر برؤية أخيه محمد يدخل الغرفة التي كان يرقد فيها ، بدا محمد قلقًا للغايـــــة . اقترب من سرير جوهر يخاطبه

وهو يلهث : ظننتكَ استشهدتْ ، أحسستُ أن ظهري انكسر . حمدًا لله على سلامتك .

" أحسستُ أن ظهري انكسر " ، لم يكن يشعر جوهر بعمق تلك العبارة إلا فيما بعد ! .

بقي جوهر في المشفى فترةً لا بأس بها ، ثم نُقِلَ بعدها إلى قريته ليحظى بالرعاية اللازمة .

كانت سعادةُ عبير بعودة أخيها كبيرة ، لم تسَعها الدنيا من الفرحة .

تذكرت طفولتها حين كانت ترقب عودته مع أبيها من المدينة بفارغ الصبر .

رتبت غرفته على أفضل ما يكون ، جهزت ملابسه وكل سبل الراحة التي يحتاجها الجريح .

ما إن لاحت لها السيارة من بعيد حتى تراقص قلبها فرحًا وانتشتْ بالسعادة . كانت ضرباتُ قلبها المتسارعة تتزاحم في صدرها ، ويداها المتعرّقتان من فرط التوتر ترتجفان .

كانت مع أمها وأختها تراقبان تقدم السيارة نحو المنزل باشتياقٍ ولهفة .

وصلَ الغائبُ المُنتظَر !

فتحت عبير باب المنزل ، المنزلُ الذي لم تطأه قدما جوهر لأشهرٍ عديدة متوالية .

كان جوهــر يحاول إخفاء شعوره بألم الإصابة ، بدا متماسكًا للغايــة . بينما لم تستطع عبير أن تحبس دموعهـــــا ، حتى متى تظل تكابدُ شعـــــور الاشتياق ؟!

احتضنته بكل ما أوتيتْ من روحٍ وكيان ، وكأنهـــــا تحتضنُ نفسهــا التي غابت عنها طوال تلك الفترة !

رغم شراسة المعارك التي خاضها جوهـر إلاّ أن حنوّه وعطفه على شقيقته التوأم لم يتغيّر . كان أول شيء قام به فور وصوله إعطاؤها المصحف .

التقطَ كفّ والدتـــــه ليقبله ، لم تتمالك نفسها فقد انفجرت باكية تحكي بدموع عينيهـا قصص الاشتياق التي رافقتهـا طيلة ليالي الغياب !

رافقته والدته ومعها والده وابنتاهـــا زهراء وعبير وأخواه مطهر ومحمد إلى غرفتـه .

كان يسير نحوها مارًّا بتفاصيل منزله الذي اشتاق إليه كثيرًا . كلُّ جزءٍ منه يحكي مغامرات الطفولة وذكرياتهـا .

****

الخميس ، فجر السادس والعشريـــــــــن من آذار / مارس ، استيقظت العاصمة صنعاء على دوي الانفجارات وأزيز الطائرات الحربيـــــة . الجميع هرع لمشاهدة الأخبار ، ما هذه الأصوات وما الذي يحدث ؟!

طائــرات العدو السعو أمريكي تشنُّ عدوانهــا الجوي الأول على العاصمةِ صنعاء !

كان الخبرُ صادمًا ومستفزًا في آن .

لم يعد الشعب اليمني كما في السابق ! فقد تذوق طعم الحريـــــــة وبات يعرف جيدًا معنى الثـــــــورة ويعي تبعات السيادة والاستقلال في عالمٍ مستكبر تُقادُ فيه الشعوبُ كـ النعاج !

ومع بدء العدوان اجتمع مشـــائخ وأهالي محافظة تعز من آل الجُنَيْد والرُّمَيْمَة والطَّيِّب والسُّرُوري لتدارس سبل المواجهـــة . كانت المحافظة تمثل جبهة دسمة للعدو ، فقد حشد حشوده مستميتًا في السيطرة عليهـا ، وكانت داعش والجماعات التكفيريــة هي الورقةُ المُستخدمة لذلك .

خاض الجيش اليمني واللجان الشـعبية معارك شـرسـة حتى اسـتطاع استعـــــادة كثير من المناطق التي سيطرت عليها عناصر حزب الإصلاح والقاعدة .

كانت قريةُ الصـراري حينذاك تشـهدُ نشـاطًا ثوريًا وثقافيًا مسـتمرين ، فقد توجـه كثير من أبنـاء القريـة إلى مختلف جبهـات القتـال في المحـافظـات اليمنية لمواجهة المرتزقة .

أما فتحي الجرادي فلم يبرح القريـــــة ، بل ظلّ فيهـــــا . يمارس عمله الجهادي في التوعيـة والتعبئـة .

****

يقع موقع العروس العسكري في أعلى قمـــة جبل صبر في محافظة تعز ، يمثل الموقع نقطة حســاســة واســتراتيجية كونه يكشــف كل شــوارع المدينـــــة ، ما جعل المجاهديـــن يخوضون معارك شرسة في سبيل استعادتـه .

صباحًا تحرّك أحمد بسيارتـــه متجهًا نحو الموقع ، كان أحمد مسئولاً عن المدد للنقاط الأمنية التابعـــة للمجاهدين . على بعد أمتـــار شعر أحمد بخطرٍ يقترب منه ، لم يوقف محرّك السـيارة بل ظلّ يتقدّم نحو الأمام ، لم يخطئ شـعوره فقد قامت عناصـر حزب الإصـلاح بنصـب كمينٍ مسـلح لأحمد ومنعه من المرور لإيصال التغذيـــة إلى المجاهديــن . وحين علم المجاهدون بالأمر تحركوا على الفور إلى موقع الكمين لتبدأ الاشــتباكات وتشتد ، ارتقى أحمد على إثرهـا بعد أن ولى المرتزقة هاربين .

لم يمرّ وقتٌ طويل حتى تم نصــب كمينٍ آخر . كان الكمين محكمًا هذه المرة والهدفُ واضح ، إجبارُ المجاهديـن على تسليم فتحي الجرادي !

كان يقودُ السـيارة مسـرعًا كعادته ، تلفحُ الشـمسُ سـمار وجهه . بدأ يردّد زاملاً اعتاد سماعه بصوت المنشد الشهيد لطف القحوم :

الوفـــاء ما تغيَّر عهــد الأحرار بـــاقي

يا رعى الله نفس تعيش في العمر حرّة

لا تراجعت خطوة جَعْلها الكسرِ ســاقي

وإنْ تنازلت مَرّة جَعْلي أموت حســرة

دامْ للمـــوت قيمة ارحبي يا سَـوَاقي

من بغى العزّ يصبِرْ نالت العـــزّ مُرّة

كان يردّد كلماته كمن يســتشــعرُ كل حرفٍ ينشــده ، ورفاقه في الســيارة يرددون معه .

لم يكن يعلم فتحي حينها أنّ هذه الأبيــات كانت هي الشاهــد الأخير على صدق بطولاتـه .

تقدّم في الطريق الوعرة بقلبٍ ما عاد يرى شيئًا أمامـه غير السمـاء !

ظهر أمام السيارة عدد من المسلحين ، أجبروا السيارة على الوقوف . ترجّل فضــل وعبد العزيز من الســيارة وعشَّــقوا بنادقهم ، أجال فتحي ببصــره أرجاء المكان ليجدهم قد انتشــروا على التلال المطلة وحاصــروهم من كل اتجاه وبنادقهم موجّهة نحوهم .

- كان المطلبُ واحدًا : سلمونا فتحي الجرادي وسنسمح لكم بالعبور آمنين .

طمأنينةُ الشعـــــور ، تلك التي تأتي بمثابةِ اللطف الإلهي في أشدّ لحظات الابتلاء كانت تسـيطر على فتحي وقتها ، لم يرتجف قلبه أو تتخدّر سـاقاه ، بل ظلّ يتابعُ المشهد بهدوء عجيب .

رفض الرجالُ طلبهم ، فباشرتهم قواتُ الغدرِ بالرد السريع .

لم يتوانوا عن إطلاق النار بوحشية المتوجّس خيفة ! فـــ المجرم وإن حُمّل بكل أنواع السلاح يبقى جبانًا ، لا يقوى على المواجهـة فـ يلجأ إلى الغدر !

يخيَّل إليه أنّ القتل سبيلُ نجاتـه بينما لا يدري أنه السبيلُ الأقصرُ لهلاكه .

ارتقى فتحي ومعه أربعة من المجاهدين إلى جوار الله " شـــهداء " . وفي تلك الساعـــــة بدأ فرض الحصار على قريـــة الصراري والذي استمر لأكثر من عام !

كان خبر استـشـهاد فتحي صـادمًا لأهل القرية ، الشـاب الذي أحبه الجميع وكان بمثابـةِ مشكاة النور إلى طريق الجهاد قد استشهد .

لم يكن وقع الخبر على جوهـــــر أقلّ إيلامًا من جراحه التي تطرّز جسمه ، عند سماعه الخبر شعر وكأن سكينًا حارّة تخترق صدره . عزاؤه الوحيدُ أن رجلاً كـ فتحي لا تليقُ به إلا الشهـادة !

أخذ المجرمون جثث الشهداء واحتجزوهـــــا لديهم ، بعد نهب أسلحتهم وإحراقِ السيارة .

ولم يُفرج عنهم إلا بوساطة قبلية في اليوم التالي للحادثـة .

****

كانت الأحداثُ مضطربـــــة ، وما زاد الأمرَ سوءًا أن حزب الإصلاح اشترى بالمال ولاء القرى المجاورة لقرية الصراري فانضمت في صفه ، مما سهّل حصار القرية .

كانت معظم المواقع في قبضـــة قوات الحرس الجمهوري في المحافظة الذين وُكِّلوا باستلامهـا بعد استرجاعها من قبضة الإصلاح والتكفيريـــن . لم تكن الخيانـــــة مُتوقَّعة ! فقد فوجئ المجاهدون بانسحابٍ غير متوقع لعناصر الحرس الجمهوري من النقاط الأمنية ، ما أربكَ حسابات المعركة وتسبب في مجازر وحشية ارتكبها التكفيريون بحق المواطنين .

قبلها كان العميد عبد الحق قد توجّه نحو موقع العروس لتأمين الطريق الاسفلتي لجبل صبر ، وتمترس مع مجموعته هناك .

وذات صباح وصلَ إلى الموقع الذي كان يتواجد فيه العميد مع مجموعته شخصان يدعيان أنهمـــــــا مُرسلان من قِبَلِ المسئول عن النقطة التي تسبق نقطة العميد ، وطلبنا منه الانسحاب وتسليم السلاح أسوةً ببقية الأفراد الموزّعين على النقاط الأمنية .

- كان ردّ العميد حاضـرًا : لو كنّا ننوي تسـليم سـلاحنا ما خرجنا من بيوتنـا !

شـــعر العميدُ بنية غدرٍ تُحاكُ في الخفاء ، فوجّه مجموعته للتحرك نحو الجبل لحماية ظهورهم وتأمين خط الانســحاب إلى النقطة الثانية في حال نفاذ الذخيرة . إلا أن العدو كان يرصدهم من المواقع المطلة على المنطقة

والمحيطة بها من ثلاث جهات . لـــــــــــ يُفاجئوا بهجومٍ مباغت من قبل التكفيريين ، حينها بدأ الاشتباك مع قلة عددهم إذ كانوا ستة أفراد لا غير . ما اضـطرهم للانسـحاب إلى أماكن محصـنة . اسـتمرّ الاشـتباك حتى نفاذ الذخيرة ، عندئذ اسـتشـهد من اسـتشـهد وجُرح من جُرِح . بينما أُخذ اثنان من المجاهدين أسيرين تم نقلهما إلى سجن المرتزق التكفيري أبو العباس .

****

رقمٌ غريب يظهر على شاشة هاتفه المحمول ! أجاب ...

تناهى إلى مسامعـه صوتٌ يعرفـه جيدًا !

- أبو حيدر ، هذا أنت ؟

- أجل يا صـــاحبي . أخبرني عن أحوالك ! وجرحكَ كيف أصـــبح ؟ هل تحسّن ؟

- الحمد لله في خيرٍ وفضل من الله . كيف حصلتَ على رقمي ؟

- التقيتُ مصادفـــة بشابٍ يعرفك ، كانت لكنته كـــ لكنة أبناء تَعِزْ . سألته إن كان يعرفك ، وأعطاني رقم هاتفك .

- عظيم . أخبرني كيف أحوالكم ؟

- نحن الآن في جبهة ذو باب ، حالما ننته إن كتب الله لنا النصر سنعود إلى مأرب . ليتك معنا !

- قريتنا الآن تشهد حصارًا أُغلقت معه كل المنافذ ، والعدو يعدّ العدة والعتاد لاقتحامها . في هذه المرحلة أبناء قريتي بأمس الحاجة إليّ . إن خرجنا من هذه المعركة سالمين منتصرين سألتحق بكم بإذن الله .

وما إن تماثل للشفـــاء حتى تحزّم بندقيتـــه وبدأ بجمع شباب القريـــة المتواجدين فيها لتشـــكيل جبهة رادعة للعدو . لم يعُد جوهر معتادًا على القعود !

وبالفعل ! فقد قام بتشـــكيل قوة من الشـــباب المجاهد توزَّع أفرادها على المناطق الاستراتيجية في القريـة . استطاعت تلك الثلّة من الشباب بقيادة

أبي زناد أن تصدَّ أكثر من ١٢ زحفًا طوال فترة الحصار . مع الأخذ بالحسبان فارق العدة والعتاد بين الطرفين !

****

لم يكن الغدرُ يومًا صـــفة جديدة على أهل الباطل ، بل صـــفة لصـــيقة لا تفارقـه !

كان عقلاءُ القريـــــة ووجهاؤها حريصون على تجنيب القرية ويلات الحرب وإدخالهـا في أتونها .

تحركت مجموعة من المرتزقة على طقمين عسـكريين من القرى المجاورة باتجاه قرية الصـراري وما إن دخلت حتى توجّهت نحو مجمع السـيد جمال الدين وطالبوا باستدعاء مشائخ ووجهاء المنطقة للتحاور والتفاوض !

لم يتردد وجهاء القريـة في الاستجابة ، فتوجّه خمسة منهم نحو المجمع .

ما إن وصلوا إلى البوابة حتى رأوا مجاميع كبيرة من التكفيريين منتشرة في المكان !

كان من يُدعى بالأميـــــر كامل يرمقُ الآيات القرآنية والعبارات الدالة على أهمية الاحتفال بالمولد النبوي الشـــريف المكتوبة والمعلقة على جدران المجمع بامتعاضٍ وغيضٍ شديدين ! فبادر بتوجيه الاتهـــــــامات وكيلها لوجهاء القرية بأنهم مجوس وتهديدهم بالذبح !

- كان فؤاد في مقدمة الرجال ، قال له باسـتهزاء : هل هذا ما أحضـرتنا لأجله ؟!

- بتعالٍ وتعجرف أجابه الأميـــــر : بل لنقدم لكم عرضًا . تخرجون من القرية وتقومون بتسليمها ، ونضمن أن تغادروهـا بسلام !

- كان فؤاد يعلم يقينًا أن مثل هؤلاء لا يعرفون للحوارِ لغة ! قال بحزم : هذه قريتنا ، وهنا بيوتنا وأرضنا ، لن نبرحها .

وخلال الحوار الـذي دار بينهمـا لاحظ فؤاد وجود مجـاميع من المقـاتلين يرتدون الزي الأفغاني ويحملون في أيديهم سكاكين حادة !

لم يصـــل الأمير إلى نتيجة ، فهؤلاء لا يعرفون لغة الخضـــوع ، وعلى الفور وجّه بإطلاق النار عليهم .

ظلت جثث الشهداء حتى اليوم الثاني ، ومُنع أهاليهم من الاقتراب منهم !

كانت تلك الجريمة من أبشـــع الجرائم التي ارتكبتها المجاميع التكفيرية والتي أثارت غضـــب الأهالي فثاروا ومنعوهم من دخول القرية الصـــراري وأوقعوا فيهم قتلى وجرحى كثر .

****

بعد مرور ما يقارب الأسبوعين أرسلت قيادة المرتزقة أحد أفرادها المدعو عدنان رُزَيْق ، القيادي في تنظيم القاعدة إلى محافظة تعز ، بهدف تعزيز القوة العسكرية لاقتحام قرية الصراري .

رغم ذلك لم تتمكن المجاميع التكفيريـــة من اقتحام القريـــة .

من يصدق ؟! مجاميع يبلغ عددها المئات مجهّزة بمختلف أنواع الأسلحة ومسنودة بغطاء جوي سعودي يمطر القرية بصواريخه ليل نهار ، تفشل في مقابل ثلة قليلة من المؤمنين المجهزين بأسلحة بسيطة !

اشتدّ الحصارُ على القريـــــــة أكثر ، منع التكفيريون دخول المواد الطبية والغذائية إلى القريـــــــــة ، ومستلزمات الأطفال . ولم يُسمح للمرضى بالخروج من القرية لتلقي العلاج ، حتى صار الوضع مأساويًا للغاية .

ظلّ الأســتاذ عبد الحكيم يفكّر في طريقة لكســر الحصــار الخانق دون أن يتنبّه عدوهم لذلك فخطرت في باله فكرة ، على الفور طلب من جوهـــر أن يرســل في طلب أحد الشــباب ممن لديه قدرة على التســلل والخروج من القرية .

كان الأســتاذ عبد الحكيم يعرف تاجرًا يســكن خارج المنطقة ، أرســل إليه برســـالة مع أحد المجاهدين ، مفادها أن وفّر وأدخل لنا بعض الاحتياجات مقابل سعرٍ مضاعف . وما كان من التاجر إلا أن وافق على العرض والطلب . وحين كُشف أمره أغلقت محلاته !

****

ظلت مجاميع التكفيريين تحاول الزحف مرة تلو الأخرى لإسـقاط القرية في قبضـتها ، وفي كل مرة كانت تبوء محاولاتها بالفشـل ! لم يسـتطع العدو في معركته تلك تحقيق أي انتصـار ، رغم الإمكانيات القتالية العالية التي كان يتمتع بها .

وحين شعر بالعجز لجـــأ إلى عمليات القصف الجوي ، التي لم تكن الأولى من نوعها !

كانت ليلة هادئـة . تمركز المجاهدون كلاً في موقعه .

طفلان في الخامسة عشرة " أحمد وعلاء " كانـا دائمي الحضور في المعركـة رغم صغر سنهمـا وخطورتهـا .

كان أحمد الشقيق الأصغر لجوهـــــــر يرفض كل محاولات تنحيته وإبقائه خارج حدود المعركة . كان يقول لهم : " هؤلاء أتوا ليســتبيحوا أرضـــنا ويســـتحلوا دماءنا لن يفرقوا بين صـــغير وكبير ! هل تريدون مني البقاء مكتوف اليدين دون فعل شيء ؟! " .

انزوى علاء وأحمد ومعهما مجاهدين آخرين في إحدى الجروف ، كان أحمد يحمل بين يديه راديو صغير يستمع من خلاله إلى الإذاعة .

لحظاتٌ من الهدوء الذي يســبق العاصـــفة أطبقت على المكان ، لم يكن يُسمع غير صفير الرياح والأصوات المنبعثة من جهاز الراديــو !

فجأة ! دوى في المكان انفجار حطم هدوء الصمت المطبق !

صاح بهم جوهـر وسط ذاك الضجيج : انبطحوا واثبتوا في أماكنكم .

وما إن سكن الصوت قليلاً حتى رفع جوهر جسده من على الأرض ليتحقق من مكان الغارة .

انقطع صوت الراديـو ! أحمد .... .

قشعريرة باردة سرت في جسده ، أيعقل ؟! أحمـ ...

- أحمد ! صاح جوهر ، لقد استُهدف الجرف !

تحرك بعض المســـعفين إلى مكان الحادثة كانت الغارة قد دفنت من في الجرف تحت التراب ! لم تمر ســـوى لحظات قليلة حتى أمطرتهم طائرة الغدر بغارة ثانيـــــــة أوقعت المزيد من الشهداء !! كان من بينهم الشهيد عامر الذي كان من خيرة المجاهدين وأفضلهم !

حينهـا شعر جوهــر بمعنى انكسار الظهر لفقد الأخ !

****

لم يكن الوضع يحتملُ الغرق في لجة الحزن ، الجميع على أهبة الاستعداد . الزحوفات تتوالى والمجاهدون يستبسلون في صدهـا !

كان أحمد هو قربان الفداء الأول الذي منح والدتـــــه معنى الشعور في أن تكون أم الشهيد !

مزيجٌ من الفخرِ والحزن المغلّف بالكبريـــــــاء يعتصرُ قلبها . لا وقت للطم الخدود أو النواح .

فالمعركة تحتاجُ وابلاً من صبر النساء وثباتهنّ كحاجتهـــــــــا لرصاصات المجاهدين واستبسالهم .

ذهب جوهر لمواساة أمه فوجدها تواسيه !

- استوى جالسًا عند قبر أحمد وإلى جواره عبير ، سألته كمن يحاولُ أخذ إجابة مسبقة عن المستقبل : جوهر ! هل سيصل الحال بنا نحن النساء لأن نحمل السلاح دفاعًا عن أنفسنا ؟

- التفت إليها مجيبًا بثقة : الله لم يكتب القتال على النساء ، طالما لم يبدر منا أي تقصير في أداء الواجب الجهادي . والعدو لن يتمكن منكنّ مهما حصل ! حتى لو استشهدنا جميعًا .

لا ندري على ماذا نحن مقبلون لكن لابد وأن يكون وعينا وإيماننا أكبر من أي موقف يمكن أن نقبل عليه ، من لا يذل للعدو لن يذله الله .

ومهما حدث ثقي أن الله سيهيئ لكن من يقف معكن . لن يمكن الله الأعداء من نساء استشهد رجالهن في معركة الجهاد والكرامة ! " .

كل تلك الأحزان لم تُثنِ والدة جوهر ونساء القرية عن مواصلة درب الجهاد بالصبر والثبات والإسناد . فقد كنّ يعملن يوميًا على إعداد الطعام للمجاهدين دونما انقطاع .

- وفي أحد الأيام وأثناء تواجد جوهر في المنزل ، كانت عبير تعبث ببندقيته ، وهي تقول بحسرة : ليتني كنتُ صبيًا !

- صبي !

- نعم . لم تقولها هكذا بتعجب واستنكار ؟! أتمنى لو كنتُ صبيًا كي أتمكن من القتالِ إلى جوارك .

- لا بأس . ما رأيكِ أن تقومي بالتنكر بزي رجل ، والمشـاركة في القتال . هكذا لن يعرفكِ أحد .

- حقًا ؟!

- هيييي هههههه بالتأكيد أمزح . إســنادكن لنا بالصــبر والثبات والمدد هو أعظم جهاد يا عبير .

****

ســاد الظلام المكان ، بالكاد يمكن للمرء أن يرى ما حوله . شــعر جوهر أن هذا الهدوء ما هو إلا مقدمة لمعركة قادمة .

لم يخب ظنه . فقد بدأ زحف جديد كان لابد من التصــدي له . لم يكن والد جوهر ليتخلّف عن أي زحفٍ يهدد القرية ، كان مشــاركًا بســلاحه ودعمه المجاهدين وبكل ما أوتي من قدرة واستطاعة .

لم يكن حضــوره إلى موقع المعركة يروق للمجاهدين ، فقد كانوا يخشــون أن يصيبه مكروه . لكنه كان يصر على أن يكون معهم في كل مرة .

وذات يوم همّ المجاهدون بترك أســلحتهم والانســحاب مالم يعد الأســتاذ إلى منزله !

قال له أحدهم : أرجوك . نحن نريد الحفاظ عليك ولا نريد أن نخسرك !

إلا أنه كان يأبى الجلوس والبقاء في موقع المتفرج .

بعد وصــول حملة عســكرية إلى موقع العروس بقيادة المرتزق التكفيري عدنان رُزيق تم التواصــل بالأســتاذ عبد الحكيم من قبل المرتزق أحمد جامِل للاتفاق على تجنيب المنطقة ويلات المواجهة وعقد اتفاق تتمثل بنوده في : فتح طريق الصــراري ، وتســليم الأســلحة الثقيلة في المنطقة إن وجدت ، وتشكيل لجنة للنظر في قضايا الدم .

لم يكن قبول الاتفاق إلا على مضــض ، ولم يلبث أن انهار في اليوم التالي ، فقد عمد المرتزقة إلى نقضه !

****

كانت قرية الأعْدان تمثل موقعًا مهمًا لحماية أهالي القرى الأخرى وتؤمّن ظهورهم من الخلف ، خاصــة قرية الصــراري ، ما دفع مجاميع التكفيريين لشـن هجوم واسـع عليها لإسـقاطها . لم يقف الأهالي مكتوفي الأيدي حيال ذلك ، فقد واجهوا ببسالة حتى نفذت ذخيرتهم .

خلال المعركة ارتقى عدد من الشهداء منهم الشهيد علوان الذي احتُجزت جثته لمدة ثلاثة أيام ، وقام التكفيريون ببتر يده اليسرى والتمثيل بجثته .

كما لم تسلم الطفولة البريئةُ من بشاعة إجرامهم ، فقد استهدفوا بنيرانهم الطفل محمد ذي الأعوام الثلاثة عشـر ! وحين لم يتمكن أحد من الوصـول إلى جثته قامت مجموعة من النساء بالوصول إليها ودفنها !

****

كعادتـــه ودّع جوهـــــر عبير قبل توجهه إلى خط المواجهة ، كان إحساسها هذه المرة يختلف عن الســـابق ! شـــيء ما يُنتزعُ منها ! تحاول مكابدة شعورها وإخفاءه خوفًا من أن تضعف أمامه ويثنيه ضعفها عن الذهاب !

صـــلى الفجر في منزل رفيقه ثم توجه إلى ســـاحة المواجهة . كانت ليلة مختلفة عن باقي الليالي .

الصمت فيها قاتل !

كان المجاهدون يترقبون هجومًا عنيفًا من العدو بعد كســـر زحوفاتهم المتوالية وتكبيدهم خسائر فادحة .

وبينما هم يسبحون بعد صلاة الفجر ويؤدون برنامج رجال الله ، تناهت إلى أسـماعهم أصـواتٌ تتعالى بالتكبير عبر مكبرات الصـوت ، علموا حينها أن العدو يزحف بشـراسـة . لم تكن أعدادهم تتجاوز الثمانية ، فقد اسـتنزفتهم الزحوفات السابقة وأوقعت منهم شهداء وجرحى .

في إحدى التباب كان مصـطفى يتمترس رفقة أحد المجاهدين بسـلاحهما الشخصي ومعدل شيكي ، أعطى جوهر أوامـــــــره بأن ينطلق البعض لإسنادهما فتمكنوا من التصدي للمرتزقة ومجاميع التكفيريين لكن الثمن كان مصطفى !

ارتقى الشـاب الذي سـجل بطولة منقطعة النظير في ثباته وشـراسـته في التصـــدي للعدو والتنكيل به . ونتيجة للضـــربات الكثيفة من المناطق المطلة والمقابلة لتبّة المَدْمال التي كان الشـهيد متمترسًـا فيها لم يتمكن المجاهدون من انتشال جثمانه .

كان جوهر في الموقع الخلفي لمصـــطفى ، وعندما علم بخبر اســـتشـــهاد مصـــطفى طلب من المجاهدين التغطية عليه لســـحب الجثمان . لكن رصاصة الغدر الآثمة داهمته فاستقرت في موضع جرحه الأول .

سمع والد جوهـــر أصوات الرصاص فأسرع نحو موقع الاشتباك .

حاول المجاهدون التقدم نحوه على خط النار ؛ لإسعافه . فحملوه محاولين إسعافه وإيقاف النزيف .

كان وضـــعه حرجًا للغاية ، رغم ذلك كان حريصًـــا على عودتهم إلى خط المواجهة !

لم يستطع المجاهدون الوصول إلى جثمان مصطفى ، فقد كان العدو إليه أسرع .

تمكنوا من أخذ الجثمان فمثّلوا بجســـده الطاهر وقاموا بتقطيع يديه وقدميه وصلبوه في منطقة تسمى الثَّعيْر !

ثم رمـوه ولم يُعثر بعدها على جثته !

****

شعر والد جوهـر أن الخطر بات محدقًا بحياة جوهــر فسارع للاتصال بأحد مشـائخ منطقة صَـنِمات الشـيخ أحمد ، فطلب منه التعاون في إسـعاف ولـده الجريح ، فبـادر مع مجموعـة كبيرة من أبنـاء قبيلتـه بتـأمين طريق للمرور إلى منطقة تسمى " الحُنـــــا " وهناك ارتفعت روح أبي زنـــــــاد الطاهــرة .

****

كنتُ أقف إلى جوار أمي وأختي جوار المنزل ، أعمدة الدخان المتصـــاعدة تشي باحتدام المعركة ، وأصوات القذائف تجلجلُ مدوية .

في تمام التاسـعة صـباحًا شـعرتُ بوخزة غريبة في يدي اليمنى لم أسـتطع احتمال ألمها . كانت تلك هي المرة الأولى التي أشعر فيها بذاك الألم .

أمســـكت بقبضـــتي مكان الوخز بإحكام ، في محاولة عبثية لتهدئة الألم . شعرتُ حينها أن روحي قد انتُزعت من عضدي !

تبادرت إلى ذهني الآية القرآنية : " سـنشـدّ عضـدك بأخيك " ، عرفتُ حينها أن ألم يدي ليس سوى مكروهٍ حل بشقيقي التوأم .

تقدم أحد المجاهدين متوجهًا نحونا وهو يركض مسـرعًا يخبرنا بضـرورة المغادرة ، كنّا نسمع من مكبرات الصوت أنهم يطالبون بتسليمنا سبايـا . تم تهريبنا فقطعنا طريقًا طويلة من أودية وجبال مشـيًا على الأقدام دون أن يعرف أحدٌ من نحن ومن نكون ، أخبرونا أن نتوجه إلى صَـنِمات ، إلى منزل الشيخ أحمد ، الشيخ الذي كان بمثابة المدد الإلهي في تخليصنا من قبضة التكفيريين ! حينهـا تذكرت كلمات جوهر حين قال لي : محال أن يمكّن الله الأعداء من نسـاءِ رجالٍ بذلوا الغالي والنفيس للبذل والجهاد في سبيله .

أثناء مسـيرنا المنهك سـمعنا حديث مجموعة من الرجال على الطريق أن جوهر قد استشهد !

حينها بدتْ والدتي في غاية الثبات ، رأيتها كما لم أرها من قبل ، متماسكة ، لم يرتجف لها جفن ! أوصـتنا ألاّ نلفت الانتباه . فنحن نسـير بين وحوش بشرية لا تعرف الرحمة .

تذكرتُ الحديث الذي دار بينها وبين جوهر ذلك اليوم على الهاتف ، حين قالت له : عد فلو حدث لك مكروه سـأُجَنّ ، فأجابها : سـيربط الله على قلبك كما ربط على قلب أم موسى !

يا للعجب ! ماذا كنت ترى يا أخي حين كنت تتحدث معنا بكل هذا ؟!

قطعنا الطريق بطولهـا نكتم في أعماقنا بركانًا مهددًا بالانفجار في أي لحظة !

هل من السـهل أن يكتم الإنسـانُ صـرخته وأنينه ؟! أن يُخفي ارتجافة قلبه ؟! أن يموت بالصمت القاتل ألف ألف مرة !

كنتُ أحاولُ أن تجرّع غصــتي بصــمت كما لو أني أتجرع جمرات من نار مشتعلة !

يئنّ قلبي المكلوم كمن يحتضر بصمتٍ مُفجع .

ما عدتُ أرى شيئًا أمامي ، كل العوالم في عينيّ انطفأت !

من يضيئها ؟

كل الخطوات تعثّرتْ !

من يُقيلُ عثارها ؟!

وعلى أطلالِ قريتي منازلُ هدّمت ، وأجسادٌ صلبت ، وقبورٌ نبِشَت ، وأشلاءٌ مُزّقت ، وقباب هدمت ، وأســر هجّرت ، وأطفال وشــيوخ أســرت ، وحياةٌ أُعدمت ، وإنسانية صودرتْ !

ما عاد فيهـا شيء يُرغب أن يُعاش بعد رحيلك !

فهل ما يبقى توأمًا في الخِلقة لا ينفصلُ بالموت ؟!

****

مما قيل عن مجزرة الصراري :

ـ الســـيد عبد الملك بدر الدين الحوثي : " ما يحصـــل اليوم ، وما حدث بـالأمس من جرائم كثيرة في كـل المحـافظـات آخرهـا الجريمـة البشـــعـة الفظيعة والمقيتة في تعز المرتكبة من جانب أدوات أمريكا وخدام إسرائيل والصهاينة ضد أهالي تعز الشرفاء في قرى الصراري ، آل الصراري وغيرهم . الاســـتهداف للشـــعب اليمني بكل أشـــكاله في البر والبحر والجو . هذا الاستهداف وراءه أمريكا ، وهو خدمة لإسرائيل ، والذي ينفذه تلك الأدوات القذرة الإجرامية " .

ـ الأمين الشهيد سماحة السيد حسن نصر الله : " على المستوى اليمني تستمر الحرب ، العدوان ، القصف ، الهجوم ، على المناطق المختلفة والتي انتهت قبل أيام في إحدى نكباتها ومجازرها في بلدة الصـــراري في اليمن ، على أيـدي الـدواعش وعلى أيـدي التكفيريين ، تحـت غطـاء مـا يســـمى بالحكومة اليمنية الشرعية ، حيث نفذت مجازر بحق الناس والمدنيين " .

ـ قصيدة شاعر الثورة ، الشاعر معاذ الجنيد في الشهيد جوهر :

رحم الله جوهرا

كان في الحرب حيدرا

كان بأسًا ، وقوةً

وملاكًا مطهرًا

كان (شمهاننا) الذي

يتمشى على الثرى

جبلاً في ثباته

صخرةً ، أن تصبّرا

جوهرٌ كانه أمة

كان فردًا ، ومعشرًا

جبهة العز قادها

كان فيها معسكرا

ثار من أجل أرضه

متحدٍ قوى الورى

واجه الموت صامدًا

شامخًا ليس مجبرًا

باع لله نفسه

فأتى الله أحمرا

****